القضيَّة المهدويَّة في ضوء التفاسير الكلاميَّة

دراسة تحليليّة مقارنة

د. أركان الخزعلي

أستاذ مساعد في جامعة المصطفى العالميَّة-قم-إيران

ملخّص

تتناول هذه الدراسة أسلوباً جديداً في بيان المهدويَّة في التفاسير الكلاميَّة؛ من خلال عرض دراسة مقارنة فيما جاء في نصوص التفاسير الكلاميَّة، وتحليلها ومناقشتها؛ للوصول إلى معناها الحقيقي.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدِّمة وثلاثة فصول وخاتمة؛ تضمَّن الفصل الأوَّل مباحث تمهيديَّة، لبيان معنى المهدويَّة، وتاريخها. وتناول الفصل الثاني مباني المدارس ونصوصهم في التفاسير الكلاميَّة حول مفهوم المهدويَّة. والفصل الثالث: تضمَّن أوجه الاشتراك والاختلاف في المهدويَّة عند المدارس الكلاميَّة، ثمَّ بيان الرأي المختار.

من أهم النتائج المتحصِّلة:

1 - اتفاق المدارس الكلاميَّة على مسألة ظهور المهديّ في آخر الزمان.

2 - اتضح من الرجوع إلى ما ذهبت إليه كلٌّ من مدرسة المعتزلة والأشاعرة والشِّيعة، وجود أوجه اختلاف منشأها المبنى الذي تعتمده المدرسة في الاعتقاد بقاعدة اللُّطف الإلهي، وأوجه اشتراك ترجع إلى الأخذ ببعض النصوص التي تتحدث عن مهديّ آخر الزمان.

استلزم البحث الاعتماد على عدَّة مناهج، أهمها: المنهج الوصفي، والمنهج التحليليّ، والمنهج النقديّ.

الكلمات المفتاحية:

القضيَّة المهدويَّة، التفاسير الكلاميَّة

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيب قلوبنا الصادق الأمين، وعلى أهل بيته المعصومين الطاهرين، وعلى صحبهم الغرّ الميامين.

إنَّ الاعتقاد بقضيَّة المهدويَّة مقترن بكل مدرسة من المدارس الكلاميَّة المعروفة (المعتزلة والأشاعرة والإماميَّة)، وقد توقَّفت على هذا المفهوم مرتكزات أساسية في الدِّين ابتداءً من ضرورة وجود الإمام في كل زمان، وانتهاءً بسكوت أعلام بعض المدارس عن الروايات الصحيحة فيها، فجاء هذا البحث ليُبيّن معناها عند كل من تلك المدارس من خلال تفاسيرهم لآيات القرآن الكريم، ليحمل البحث عنوان: (المهدويَّة في ضوء التفاسير الكلاميَّة - دراسة تحليليّة مقارنة-) ومنه اشتُقَّ السؤال الأساسيُّ للبحث، وهو: ما هي المهدويَّة في ضوء التفاسير الكلاميَّة؟

وتكمن في بيان إشكاليَّة مهمّة تتعلَّق بمفهوم المهدويَّة في نصوص كل من التفاسير الكلاميَّة، وبيان علَّة هذا الاختلاف بين كلِّ مدرسة، من خلال بيان مبانيهم ثمّ النتائج المترتبة على فهمهم للآيات القرآنية. واستلزم البحث عدَّة مناهج، منها:

1 - المنهج الوصفيّ (وذلك من خلال نقل الوقائع والحوادث إلى المخاطَب بواسطة التوصيف).

2 - المنهج التحليليّ (وذلك من خلال تفصيل ما أُجمل أو إرجاع ما فُصِّل إلى مناشئهِ الأوَّلية، أو بيان آثار وأبعاد الآراء الواردة).

3 - المنهج النقديّ (دراسة الاتفاق والافتراق للوصول إلى نتائج سليمة فيما يتعلّق بالمهدويَّة).

■ المبحث الأوَّل: مباحث تمهيديّة

قبل الخوض في بيان مفهوم القضيَّة المهدويَّة في التفاسير الكلاميَّة، لابدَّ لنا أنْ نتوقَّف عند

أهم المباحث التصوّرية وهي:

■ المطلب الأوَّل: المهدويَّة لغة واصطلاحاً

أولاً: المهدويَّة لغةً

نستعرض بعض أهمِّ أقوال أهل اللغة - حسب التسلسل الزمنيّ لهم- في المهدويَّة، ثمّ دراستها وتحليلها:

1 - عند نشوان بن سعيد الحميري (ت573هـ): «المهديّ: من [هدى]: هداه إلى الطريق هداية: أي دلّه. قال اللَّه: ﴿**وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ وهداه الطريقَ أيضاً. قال اللَّه تعالى: ﴿ **وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾. وهداه للدين هُدىً: أي بيَّن له. قال اللَّه تعالى: ﴿**هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**﴾ قيل: إنما خصّ اللَّهُ تعالى به المتقِّين وإن كان هدىً للناس لأنّهم آمنوا به. وقيل: إنما خصّهم به تشريفاً لهم، والفاعل هاد والمفعول مهديّ (وأصله مَهْدُوْيٌ بوزن مفعول قُلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء بعدها لام الاسم وجوباً لاجتماعهما في كلمة وسبق إحداهما ساكنةً ثم قلبت ضمة الدال)». (الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم، ج10، ص6896)

2 - عند ابن منظور (ت711هـ): «المهديّ: الذي قد هَداه الله إلى الحق، وقد اسْتُعْمِل في الأَسماء حتى صار كالأَسماء الغالبة، وبه سُمي المهديّ الذي بَشَّر به النبيُّ، أَنه يجيء في آخر الزمان». (محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص354)

3 - عند محمد بن محمد الزبيدي (ت 1205هـ): «المهديّ: الذي قد هَداهُ اللَّه إلىّ الحقِّ، وقد اسْتُعْمِل في الأَسْماء حتى صارَ كالأَسْماءِ الغالِبَة، وبه سُمِّي المهديّ الذي بُشِّر به أَنَّه يجيء في آخرِ الزَّمان، جَعَلَنا اللَّه من أَنْصاره. قال ياقوت وفي اشتقاق المهديّ عندي ثلاثة أوجه:

أَحدهما: أنْ يكون من الهدى يَعني أَنَّه مُهتد في نَفسه لا أنَّه هَدِيَّةُ غيرِه, ولو كانَ كذلكَ لكانَ بضمِّ الميم ولَيسَ الضم والفتح للتَّعدية وغَير التَّعدية.

والثاني: أَنَّه اسمُ مَفعولٍ من هَدَى يَهدِي، فعلى هذا أَصلُه مَهدَويّ أَدغَموا الواو في الياءِ خُروجاً من الثقلِ ثم كُسِرَت الدالُ.

والثالث: أنْ يكونَ مَنسوباً إلى المَهد تَشبيهاً له بعِيسَى, فإنَّه تكلَّمَ في المَهدِ, فَضِيلَة اختُصَّ

بها، وأنَّه يـأتي في آخرِ الزمانِ فيَهدِي الناسَ مِن الضلالـة». (الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج20، ص327 – 332)

دراسة وتحليل:

حينما تعرَّض اللغويون إلى بيان معنى المهدويَّة التي هي مؤنث مهدويّ بحسـب الأصل، لم يتطرَّقوا إلى ضم الميم [مهديّ]: لتكون بمعنى هو من يهدي غيره، أي: لو لُفظت كلمة المهديّ (بفتح الميم) وهو اسـم مفعول سـتكون بمعنى هو المُهتدي الذي هداه الله، ولو لُفظت (بضم الميم) وهو اسم فاعل سيكون هو من يقوم بالهداية.

النتيجة: لا ريبَ في أنَّ الكلام لو وقع على وصف اسم لشخص الإمام المهديّ فيكون جامعاً لكلِّ الوجوه فهو (مهديّ) بفتح الميم، بمعنى: قد وقعت عليه الهداية فهو اسم مفعول من الفعل هدى، ولا شكَ أيضاً في أنَّه يهدي الناس، ومن هذه الجهة سيكون (مهديّ)، اسم فاعل من الفعل (هدى)، ولعل ما يعضُد قولنا نص دعاء العهد الوارد عن الإمام الصادق: «اللهم بلغ مولانا الإمام الهادي المهديّ القائم بأمرك». (المجلسي، بحار الأنوار، ج99، ص111.) وقد ورد كِلا اللفظين (المهديّ والهادي) في الدعاء، فهو المهديّ من الله تعالى، والهادي لجميع الخلائق.

ثانياً: المهدويَّة اصطلاحاً

القضيَّـة المهدويَّـة: هي القضيَّة التـي يؤمن بها جميع المسـلمين، تظهر آخر الزمـان متُمثِّلة بشـخصية تنشـر العدل والسلام بعد أن يحكم العالَم، ويحارب الظلم والفساد الذي يملأ أرجاء الأرض.

وهذا الاعتقاد السـائد عند جميع طوائف المسلمين تولَّد من كثرة الأخبار وتواتر الروايات في ذلك، حيث ورد في بيان مفهوم المهدويَّة: قَالَ رَسُولُ اللَّه: «أُبَشِّرُكُمْ بِالْمهديّ يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ وَزِلْزَالٍ يَمْلأُ الْأَرْضَ عَدْلاً وَقِسْـطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً يَرْضَى عَنْهُ سَـاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الْأَرْضِ». (الطوسي، الغيبة (للطوسي)، ص23)

وأيضاً: «الْمهديّ مِنْ وُلْدِي، وَجْهُهُ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ، وَاللَّوْنُ لَوْنٌ عَرَبِيٌّ، وَالْجِسْـمُ جِسْـمٌ إِسْرَائِيـلِيٌّ، يَمْلأُ الْأَرْضَ عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَـوْراً، يَرْضَى بِخِلَافَتِهِ أَهْلُ السَّـمَاءِ وَالطَّيْرُ فِي الْجَوِّ، وَيَمْلِكُ عِشْرِينَ سَنَةً». (الطبري، دلائل الإمامة، ص441)

وكذلك: «لتملأنّ الأرض ظلماً وجوراً حتى لا يقول أحد: اللّه اللّه، يستعلق به، ثم لتملأنّ بعد ذلك قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً». (أبو داود، سنن أبي داوود، ص٥٨٩)

دراسة وتحليل:

ما تقدَّم كان في معنى المهديّ الذي تُنسب له القضيَّة المهدويَّة، ولكن من هو المهديّ؟ وما هي هويته؟ فقد وقع الخلاف بين المسلمين في تحديد ذلك، حيث ذكر النُّعمانيُّ في كتابه:))لا خلاف بين المسلمين في ظهور المهديّ الّذي يملأ الأرض عدلاً ... وإنّما الخلاف وقع بينهم في أنّه ولِد أو سيولد. فالشِّيعة الإماميَّة يقولون بولادته، وبوجوده وحياته، وغيبته، وأنّه سيظهر بإذن اللّه تعالى، وأنّه الإمام الثّاني عشر، وهو ابن الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام، ورواياتهم في ذلك تجاوز حدّ التّواتر، معتبرة في غاية الاعتبار، مؤيّدة بعضها ببعض، وكثير منها من الصّحاح، بل مقطوع الصّدور))(النُّعماني، الغيبة للنعماني، ص9)

■ المطلب الثاني: نبذة تاريخية حول المسألة

إنَّ الاعتقاد بالقضيَّة المهدويَّة بظهور مخلِّص ومنقذ للبشرية ترجع أصولها لنبيِّ الإسلام، يقول الشيخ مهديّ فقيه الإيمانيّ:))إذا استعرضنا مصادر الحديث والتاريخ والعقيدة والتفسير لدى الشِّيعة والسنّة، توصلنا إلى هذه الحقيقة: إنَّ الرسول الأكرم كان أول من طرح موضوع المهديّ المنتظر ونهضته العالميَّة وشرح بدقة خصائص أُسرته وآبائه وأجداده بحيث لم يبق مجالاً لمدَّعي المهدويَّة الكذّابين أن يقتنوا لقب (المهديّ المنتظر). (الإيماني، أصالة المهدويَّة في الإسلام، ص7)

لكن هذه العقيدة نراها تمتدُّ إلى ما قبل الإسلام، حيث آمنت بذلك الديانات الإبراهيميَّة، بل منذ وجود البشريَّة وبدء تاريخ الإنسانيَّة. يقول صاحب كتاب تعريف المهدويَّة للحضارات الأخرى: (إنَّ معظم الأمم والشعوب تؤمن بأنَّ هناك شخصاً سوف يأتي في آخر الزمان ليُصحّح أوضاع البشريَّة وينصر المستضعفين ويقضي على الفساد والظلم والجور، وعلى هذا فاليهوديَّة تؤمن بوجود ملك منقذ سيظهر آخر الزمان، والمسيحيَّة تؤمن برجوع عيسى بن مريم آخر الزمان... وبسهولة نستطيع أنْ نجد تواتراً عجيباً لفكرة المخلِّص أو المنقذ على امتداد التاريخ

الإنسانيّ في العديد من الأديان). (السادة، تعريف المهدويَّة للحضارات الأخرى ، ص106)
ومن بين نصوص التوراة والإنجيل ما جاء في العهد القديم وتحديداً في الإصحاح: (كانت كلمة الرب عن يدِ حَجَّيْ النبي قائلاً: حسب الكلام الذي عاهدتكم به عند خروجكم من مصر وروحي قائم في وسطكم: لا تخافوا، لأنه قال هكذا رب الجنود: هي مُرّةٌ بعد قليل فأُزلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة، وأُزلزل كلَّ الأُمم، ويأتي مُشتهى كلِّ الأُمم، فأملأُ هذا البيتَ مجداً قال ربُّ الجنود لي الفضةُ والذهبُ، يقول ربُّ الجنود مجدُ هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأوَّل قال ربُّ الجنود، وفي هذا المكان أُعطي السلام يقول ربُّ الجنود).
(الكتاب المقدس: الإصحاح الثاني: ١٣٣٨ . نقلاً عن كتاب الثقافة المهدويَّة للسيد رياض الحكيم، الباب الأوَّل: المهدويَّة في الأديان السماويَّة) وفي العهد الجديد وتحديداً في إنجيل لوقا: (كونوا على استعداد، أوساطُكم مشدودة ومصابيحُكم موقَدة كرجالٍ ينتظرون رجوعَ سيّدهم من العرس.. فكونوا إذاً على استعداد، لأنّ ابن الإنسان يجيء في ساعةٍ لا تنتظرونها).
العهد الجديد: لوقا: ٢٠٧/١٢ . نقلاً عن كتاب الثقافة المهدويَّة للسيد رياض الحكيم، الباب الأوَّل: المهدويَّة في الأديان السماويَّة).

■ المطلب الثالث: مصطلحات ذات ارتباط:

لا شكَّ ولا شبهة في أنَّ الألفاظ المرتبطة بموضوعٍ البحث من أيِّ جهة كانت، تشكِّل بُعداً من أبعاده، وبيان هذه المصطلحات له أهمية كبيرة في الوقوف على المعنى المراد معرفته، ومن هذه المصطلحات التي لها صلة ببحثنا:

أولاً: المخلص الموعود

إنَّ عموم البشريَّة تؤمن بخلاص تام يتُمثِّل في مهديّ آخر الزمان، والمقصود بالخلاص التام هو إنقاذ الإنسانيَّة جمعاء وإصلاح جميع نفوس البشر، حيثُ لا يُحدَّد ذلك بفئةٍ أو طائفةٍ معيَّنة.
لذا فالبشريَّة تتطلَّع إلى مجيء يوم تسود فيه العدالة، وتُلبّى حاجاتها، حتى صار انتظار ذلك اليوم والأمل بمجيئه اعتقاداً راسخاً عند عموم البشر ممن يفقد المساواة والعدل والإنصاف ونحو ذلك. كما أنَّ هذا الاعتقاد، يُشعر بالطمأنينة والأمان.

ثانياً: الإمامة

بعد أن عرفنا فكرة المخلص الموعود الذي سيملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد ما ملئت ظُلماً وجوراً، سنعرف حينها أنَّه لا يمُكن لأيِّ إنسانٍ أن يكون هو السبيل الوحيد في خلاص الإنسانيَّة من الظلم والاستبداد ما لم يكن هذا الشخص مصطفىً من الله, تعالى؛ حتى يُوكل إليه هذه المهمة الإلهيَّة.

ومعرفة هذا الشخص موكولٌ من الله، تعالى، كالأنبياء، وهو ما يُصطلح عليه القائد أو الرئيس أو الإمام.

ومن هنا احتجنا لبيان مفهوم الإمام لِما له من ربطٍ وثيقٍ مع بحثنا، حيث يقول الشهيد مطهري في كتابه الإمامة:))الإمامة في المعنى الأوَّل (أي: العام) الذي عُرضت له هي الرئاسة العامة. فتوجد من المواقع التي يتركها النبي شاغرة بعد مغادرته الدنيا هي قيادة المجتمع. فالمجتمع يحتاج إلى قائد، ولا يشك أحد في ضرورة هذه الحاجة)).(مطهري، الإمامة، ص43)

هذا ما تتفق عليه جميع الأديان والفِرق والمدارس، كما اختُلِفَ في معنى الإمامة الخاص كمرجعيَّة الإمام الدِّينيّة- في الدِّين الواحد فضلاً عن الأديان-، فالإمامة بهذا المعنى ترجع لتخصيصها من الله, تعالى، حتى لا ينطلق الإمام من عقله وفكره الذي قد يُخطئ ويصيب.

وما نحنُ بصدده هو اختلاف السنَّة والشِّيعة في وظيفة الإمام، لأن أهل السنّة يعتقدون أن: «أحكام الإسلام هي فقط التي بلَّغها النبي لأصحابه ... أما ما تعتقد به الشِّيعة وتقول به هو أنَّ الله لم يُنزل ديناً ناقصاً إلى نبيه، وبدوره لم ينقص النبي شيئاً مما تبلَّغه من السماء في بيانه للناس، بل بلَّغه النبي كاملاً. ولكن الصيغة الكاملة للأحكام التي بلَّغها النبي لم تكن تساوي ما كان قاله لعامة الناس، ومن ثمَّ فإنَّ ما كان بلغ عامة الناس لم يكن يُعبرِّ عن الصيغة الكاملة للأحكام التي أُوحيت إليه من عند الله، بل اختصَّ بصيغة الأحكام الكاملة التي جاءت من عند الله، تلميذه الخاصّ (علي بن أبي طالب) وقد أمره أن يُبيِّنها للناس».(مطهري، الإمامة، ص54-60) فأهل السنَّة لا تعتقد بهذه المنزلة وهذه المرتبة لأيِّ شخص على الإطلاق.

■ المبحث الثاني: نصوص ومباني المعتزلة والأشاعرة والشِّيعة في المهدويَّة

قبل أنْ نعرفَ ما هي المهدويَّة عند كل مدرسةٍ، وكيف تناولوا هذه القضيَّة في تفاسيرهم للقرآن

الكريم، لابدَّ لنا أولاً من معرفة مبانيهم الكلاميَّة التي اعتمدوا عليها، وهي التي ساقتهم إلى تفسير المهديّ بحسب مدرستهم الكلاميَّة عند تناول الآيات القرآنية المرتبطة بذلك.

■ المطلب الأوَّل: مباني المعتزلة ونصوصهم في المهدويَّة

أولاً: مباني المعتزلة في المهدويَّة

للمعتزلة أصولٌ خمسة هي التي تُعيِّن لنا مذهبهم في التفسير، وعليها قد قيل: ليس لأحدٍ يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة[1]، فإذا جمعت هذه الأصول في شخصٍ فهو معتزلي.(مجموعة من المؤلفين، كتاب موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج3،

---

1 - أصول المعتزلة، هي:

1 - التوحيد: حيث ذهبوا إلى أنَّ الصفات ليست خارجة عن الذات ومغايرة لها، وأنَّ الله عالم بذاته، وأنَّ رؤية الله في الدنيا والآخرة مستحيلة، وأنَّ القرآن مخلوق وليس بقديم.

2 - العدل: وهو أنَّ الأفعال مخلوقة للعباد خيرها وشرها، وما صدر من المعاصي، صدر بغير مشيئة الله، وقد بنوا على هذا الأصل فروعاً كثيرة منها:

أ- الله لا يفعل القبيح، ورتَّبوا على ذلك أنَّ الرزق هو الحلال فقط، ولا يُسمَّى الحرام رزقاً.

ب- وجوب الصلاح والأصلح على الله من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد.

ج- الله لا يُريد المعاصي.

د- الله لا يخلق أفعال العباد، بل هم الذين يخلقون أفعالهم.

هـ - صحة التحسين والتقبيح العقليين، فإنَّ الحُسن والقبح صفتان ذاتيتان، فالعقل يحسِّن ويقبِّح.

3 - الوعد والوعيد: بمعنى أنَّ الله يُجازي من أحسن بالإحسان، ومن أساء بالسوء، ولا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل من مرتكب الكبيرة الشفاعة، لأنه توعَّد بالعقاب على الكبائر فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده.

4 - المنزلة بين المنزلتين: بمعنى أنَّ صاحب الكبيرة لا هو مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق؛ لأنَّ المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحقه، وليس بكافر؛ لإقراره بالشهادتين.

5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فهما بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يكفيا، وبالسيف إن لم تكف اليد.

كذلك تعتقد المعتزلة أنهم يفهمون جميع آيات القرآن الكريم وإمكان تفسيرها، فإنهم يؤمنون بتأويل ما لم يُقبل بظاهرها حتى تكون مقبولة. (راجع: جار الله الزهدي، المعتزلة، ص 51 – 112 بتصرّفٍ).

ص277 نقلاً عن قول الخيّاط في كتابه الانتصار، وهو أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث)

وما تجدر الإشـارة إليه في المقام أنَّ المعتزلة كغيرها من الفرق قد بدأت محدودة مقتصـرة على الأصول الخمسـة، ولكن سرعان ما تعمَّق المعتزلة في بحث تلك الأصول، وتوسَّـعوا في شرحها، فنشـأت مسـائل فرعيَّة من هذه الأصول ومن غيرها، ومنها بحث المهديّ، الذي نحن بصدده. (كتاب موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج3، ص277)

المحصِّلة: اتِّباع العقل والانتفاع بالقواعد العقليّة في جميع المجالات الفكريَّة ومنها تفسير الآيات القرآنية، هو الأصل الحاكم على جميع أفكارهم وآرائهم واعتقاداتهم. ولذلك تسقط كثير من الروايات لدى المعتزلة بسبب مخالفتها للقواعد العقليّة، ولو كانت الروايات صحيحة السند. (الزهدي، المعتزلة، ص 113 وما بعدها)

ثانياً: النصوص حول المهدويَّة في التفاسير الاعتزاليَّة

يـرى بعـض المعتزلة أنَّ فكـرة المهدويَّة متحقِّقة لا محالة، كما ذكـر ذلك ابن أبي الحديد المعتزليّ في عدَّة نصوص أوردها لا سيما في شرحه لنهج البلاغة لقول أمير المؤمنين (وبنا يختم لا بكم): إشـارة إلى المهديّ الذي يظهر في آخر الزمان وأكثر المحدِّثين على أنه من ولد فاطمة وأصحابنـا المعتزلة لا ينكرونـه وقد صرَّحوا بذكره في كتبهم واعترف به شـيوخهم إلاَّ أنه عندنا لم يخلق بعد وسـيخلق وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً.(المعتزلي، ابن أبي الحديد ج1، ص 146. نقلاً عن الكوراني، عصر الظهور ص ٣٦٢)

كـما قال في شرح قوله: (لتعطفنَّ الدنيا علينا بعد شماسـها عطف الضَّروس على ولدها) وتـلا عقب ذلـك ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْـتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُـمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ حيث قال:

والإماميَّة تزعم أنَّ ذلك وعد منه بالإمام الغائب يملك الأرض في آخر الزمان وأصحابنا يقولون: إنَّه وعد بإمام يملك الأرض, ويستولي على المماليك,ّ ولا يلزم من ذلك أنه لابدّ أن يكون موجوداً. (المعتزلي، ابن أبي الحديد ج1، ص 146. نقلاً عن الكوراني، عصر الظهور ص ٣٦٢)

كما قال في شرح مقاله: (إن ستره من الناس) هذا الكلام يدلُّ على استتار هذا الإنسان المشار إليـه وليس ذلك بنافع للإمامية في مذهبهم وذلك لأنه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله

في آخر الزمان ويكون مستتراً مدّة وله دعاة يدعون إليه ويُقّرون أمره، ثمّ يظهر بعد ذلك الاستتار ويملك المماليك ويقهر الدول ويمهد الأرض.(المعتزلي، ابن أبي الحديد ج1، ص 146. نقلاً عن الكوراني، عصر الظهور ص ٣٦٢)

المحصِّلة: يذهب ابن أبي الحديد المعتزليّ وبقية علماء المعتزلة إلى تحقُّق المهدويَّة بظهور الإمام المهديّ الذي هو من ولد فاطمة إلَّا أنه سيُخلق في آخر الزمان ليملك الدول ويمهد الأرض وينشـر العدل.ّ

على هذا الأساس نفهم أنَّ المعتزلة تذهب إلى عدم ضرورة وجود الإمام في كلِّ زمان وآن، فلو تتبَّعنا أقوال القاضي عبد الجبار المعتزليّ شيخ المعتزلة[1] فسنجده يقول:

«وليس أنْ يُدَّعى إماماً واحداً بأولى من جماعة، ولا معصوماً بأولى من غيره». وقال: «ولو أنَّ قائلاً قال بالمتقرَّر في العقول فزعهم إلى خِيار أنفسهم في نصب رئيس جامع للكلم، فيجب أن يبطل بذلك إثبات الإمام بنصٍ أو معجزةٍ لكان أقرب مما ذكروه». وقال: «ثمَّ دعا ذلك بعضهم إلى إنكار العقليّات أو بعضها لكي يُثبت حجَّة في الزمان فأبطلوا الحجج الصحيحة لكي يثبتوا ما لا أصل له، وما لو ثبت لكان فرعاً على هذه الحجج، لأنَّ إثبات الإمام لا يمكن بطريقة إلَّا بطريقة العقـل أو التواتر». (القاضي عبد الجبار، المغنـي، ج20، ص28. نقلاً عن الشريف المرتضى، الشـافي في الإمامة، ج1، ص60 – 80) وغيرها من النصـوص الكثيرة في كتابه (المغني) الذي بذل فيه نشـاطه وجهده لتفنيد أقوال الإماميَّـة في الإمامة، لكن تصدَّى له الشريف المرتضى في كتابه (الشافي)، حيث ردَّ على ما تقدَّم من نصوص بقوله:

«دليلنا على وجوب الإمامة ووجه وجوبها من طريق العقل وبعد التعبُّد بالشرع ... ودلّلنا على كون الإمامة لطفاً في فعل الواجبات والطاعات، وتجنّب المقبِّحات، وارتفاع الفساد، وانتظام أمر الخلق.... وأما العلم بأنَّ الإمام فلان دون غيره فيحصل بالتواتر، وبقول الإمام أيضاً مع المُعجز، لأنَّ المُعجـز إذا دُلّ على صدقه وأُمن من كذبـه وادعائه أنه الإمام الذي احتج الله تعالى به على الخلق وجب تصديقه والتسـليم لقوله، كما أنَّ المُعجز إذا دلَّ على صدق النبي وجب التسـليم

1 - هو عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، المشهور القاضي عبد الجبار، شيخ المعتزلة في عصره، له كتب عديدة، منها: الأصول الخمسة، والمغني في أبواب العدل والتوحيد، ومتشابه القرآن، وغيرها، توفي سنة 415 هـ (انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص573).

لـكل ما يدّعيه ويؤديه والقطع على صدقه فيـه، وهذا بخلاف ما ظننته من أن كونه إماماً لا يصحّ أن يُعلـم من جهته من حيث توهمّت أن صدقه لا يصحّ أن يكون معلوماً قبل إمامته... قد بيَّنا أنَّ الفرقة المحقِّة القائلة بوجود إمام حافظ للشريعة هي عارفة بما نُقل من الشريعة عن النبي وما لم يُنقل عنه فبما نُقل عن الأئمة القائمين بالأمر بعده...». (الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة، ج1، ص-137 190)

مناقشة:

إنَّ قيادة الأمة بعد النبي هل هي بيد الله أم هي بيد الأمة نفسها محلّ اختلاف الفِرق الإسلاميّة، بعكس اتفاقهم على ضرورة وجود الإمام بجميع معانيه من الرئاسة والزعامة والقيادة الدنيوية أو الدِّينيّة ونحوها.

لكن ما نلحظه وجود الاختلاف في الفِرقة الواحدة كالمعتزلة حول كلّ مسـألة، كما تقدَّم بين كلام ابـن أبي الحديد المعتزليّ بنصوصه الواضحة والمقرِّة بإمامة المهديّ في آخر الزمان الذي هو من ولد فاطمة، وبين شـيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار الذي أنكر تلك الضـرورة بزعمه أنّ العقل لا يقبلها متغافلاً قاعد اللُّطف الإلهي.

كذلك خالف حاتم الأصم أحد شيوخ المعتزلة عن أصل اتفاق الفِرق بضـرورة وجود الإمام في كل زمان من الأسـاس، حيث ذهب إلى أنَّ «الواجب على الأمة التعاون والتعاضد لإحياء الحق وإماتة الباطل، ومع قيام الأمة بهذا الواجب لا يبقى للإمام فائدة تستدعي تسلطه على العباد، وأما إذا اختلفت الأمـة ولم تتعاون على نشر العدل وإحقاق الحق فيجب عليها تعيين من يقوم بهذه المهمات، وعـلى ذلك فالإمامة لا تجب بالشرع ولا بالعقل، وإنمـا تجب بالمصلحة أحياناً». (السّبْحانيّ، بحوث في الملل والنحل، ج6، ص268)

وعلى هذا الأسـاس سـقطت جميع النصوص الـواردة في الإمام المهـديّ بحجَّة عدم تعقُّل ضرورة وجوده.

الخلاصة:

تجدر الإشـارة إلى ما ذكره الشيخ السّبْحانيّ في سبب مخالفة المعتزلة لقاعدة اللُّطف الإلهيّ

التي يؤمنون بها في مسـائل عقدية أخرى، حيث قـال:))الغريب أنَّ المعتزلة الذين يذهبون إلى وجوب اللُّطف والأصلح على الله سبحانه، يشذُّون في هذا المقام عن معتقدهم هذا، مع العلم بأنَّ هـذا المورد من جزئيَّاته، والذي منعهم عن الالتزام بالقاعدة في المقام بأنهم لو قالوا بها في هذه المسألة لزمهم أنْ يقولوا بعدم صحة خلافة الخلفاء المتقدِّمين على عليٍّ؛ لأنَّ قاعدة اللُّطف تقتـضي أنْ يكون الخليفـة منصوصاً عليه من الله سـبحانه)). (السّـبْحانيّ، بحوث في الملل والنحل، ج6، ص268)

■ المطلب الثاني: مباني الأشاعرة ونصوصهم في المهدويَّة

أولاً: مباني الأشاعرة في المهدويَّة

خطَّ الأشـعري لنفسـه منهجاً جديداً يلجأ فيـه إلى تأويل النصوص، لتتَّفـق مع أحكام العقل وهذه هي المرحلة التي ما زال الأشـاعرة عليها. فبعد أنْ التزمت المعتزلة بالعقل جاء الأشـعري بأفكاره ليوفق بين العقل والنقل. فأجمع الأشاعرة على اعتماد الأدلَّة العقليّة في المسائل العقدية، واعتبروهـا أدلَّة قطعية، وكلُّ ما دون ذلك من القرآن والسـنَّة والإجـماع فهي أدلَّة ظنية. (باجو، عقائد الأشاعرة، ص70)

كما أنَّ الرازيَّ وضع للاسـتدلال بالأدلَّة السمعيَّة شروطاً عشرة، تكاد أن تكون تعجيزيَّة يتعذَّر وجودهـا في أقل القليل من الأخبار، حيث قال: الدليل اللفظيّ لا يُفيد اليقين إلَّا عند تيقُّن أمور عـشرة: عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ وصحة إعرابها وتصـريفها وعدم الاشـتراك والمجاز والتخصيص بالأشـخاص والأزمنة وعدم الإضمار والتقديـم والتأخير وعدم المعارض العقليّ الذي لو كان لرجِّح. (باجو، عقائد الأشاعرة، نقلاً عن الفخر الرازي في المحصل، ص142)

إذن: تعتمد الأشـاعرة في باب العقائد على الأدلَّة العقليّـة في إثبات عقائدهم، وهذا ما ذهب إليه المتأخِّرون منهم كالرازيِّ والآمديِّ، اللذيَن يختلفان عن الأشـعريِّ والباقلانيِّ، حيث غلب الاستدلال في كتبهم على نصوص الكتاب والسنَّة.

على هذا الأساس لم ترَ الأشاعرة ضرورة وجود الإمام في كلِّ زمان، فضلاً عن أنَّ تنصيبه ليس بالتنصيص بل بالشورى. (السّبْحانيّ، بحوث في الملل والنحل، ج3، ص215) كما جاء في روح المعاني للألوسي: «واستدل بعضهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفة من اللّه, عزَّ وجلَّ, وهو

قول من أوجب على الله, تعالى, نصب الإمام؛ لأنَّه من اللُّطف الواجب عليه سبحانه، والجماعة لا يقولون بذلك، والإمامة عندهم مـن الفروع، وإنْ ذكروها في كتب العقائد، وليس في الآية ما يلزم منه ذلك كما لا يخفى».(الألوسي ، روح المعاني، ج12، ص179)

ثانياً: النصوص حول المهدويَّة في التفاسير الأشعريَّة

ورد عند الاشـاعرة الذين يُشَـكِّلُون الأغلبيَّة من أهل السـنَّة اليوم، الروايات الكثيرة في شـأن المهديّ، حيثُ ولَّدت الاعتقاد عندهم بفكرة المهدويَّة، التي فرضت نفسـها وأصبحت فكرة لا يمُكـن تجاهلها أو الإعراض عنها ، على الرغم مـن تكذيب بعض علمائهم لهذه الفكرة وعدِّها من أساطير الأوَّلين.

ومن أبرز النصوص في هذا المجال ما ورد في صحاحهم و أسـانيدهم وكتبهم المعتبرة، وفي تفاسيرهم الكلاميَّة للقرآن الكريم، ومنها:

ما نقله ابن كثير في تفسيره، حيثُ قال: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشـر رجلاً». ثمَّ قـال: «وفي هذا الحديث دلالة على أنَّه لا بدَّ من وجود اثني عشر خليفة عادلاً، وليسـوا هم بأئمة الشِّـيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكـن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدِّمة، ثمَّ لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكـون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهـم أبو بكر، ثمَّ عمر، ثمَّ عثمان، ثمَّ عـلي رضي اللّه عنه، ثمَّ كانت بعدهم فترة، ثمَّ وجد منهم من شاء اللّه، ثمَّ قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه اللّه تعالى. ومنهم المهديّ الذي اسمه يطابق اسم رسول اللّه ‘، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً و ظلماً». (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، ج6، ص72)

وينقل السيوطي أيضاً الكثير من النصوص الصـريحة في الإمام المهديّ، ومنها: قال رسول الله: «أبشِّركم بالمهديّ يبعثه الله في أمتي على اختلاف من الزمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ويرضى عنه ساكنو السماء وساكنو الأرض يقسم الأرض ضحاحاً فقال له رجل ما ضحاحاً قال بالسـوية بين الناس ويملأ قلوب أمة محمد غنى ويسـعهم عدله ...» و«لا تقوم السـاعة حتى يملك الأرض رجل من أهل بيتي أجلى أقنى ولفظ أبي داود المهديّ منـي أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسـطاً وعدلاً كما ملئت قبله ظلماً وجوراً ... » و

«يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال و لا يعدُّه» و«يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمــان وظهور من الفتن يكون عطاؤه حثياً» و«لو لم يبقَ من الدنيا إلَّا يوم لبعث الله رجلاً منا يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» و«المهديُّ منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة» وقال عليٌّ, ونظر إلى ابنه الحسن فقال: « إنَّ ابني هذا سيِّد كما سماه رسول الله (ص) وسيخرج من صلبه رجل يُســمَّى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشــبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً» وعن أم سلمة رضى الله عنها سمعت رســول الله ﷺ يقول: «المهديّ من عترتي من ولد فاطمة». (السيوطي، الدر المنثور، ج6، ص57)

كذلــك في كتــب الصِحاح، عن النبــي(ص): «كيفَ أنتمْ إذا نزل ابــن مريم فيكم وإمامكم منكُمْ». (البخاري، صحيح البخاري، ج2، ص1073، رقم الحديث: (3449)؛ ابن الحجاج,مسلم، صحيح مســلم، ج1، ص133) وعنه (ص) أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلَّا يوم لطوَّل الله ذلك اليــوم حتى يبعث الله فيه رجلاً منِّي أو من أهل بيتي، يواطئ اســمُه اســمي، واســم أبيه اســم أبي ». (السجســتاني، كتاب المهديّ. نقلاً عن البستوري، المهديّ المنتظر في ضوء الأحاديث، ص29)

وعن أم ســلمة قالت: ســمعت رســول الله (ص) يقول: «المهديّ من عترتي -أي من نسلي- من ولد فاطمة» .(السجســتاني، كتاب المهديّ. نقلاً عن البســتوري، المهديّ المنتظر في ضوء الأحاديث، ص29).

وقد أجمل المؤرِّخ الشهير ابن خلدون مضمون الروايات الكثيرة، حيثُ قال: «اعلم أنَّ المشهور بين الكافَّة من أهل الإســلام على مــرِّ الأعصار أنه لابدَّ في آخر الزمان مــن ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدِّين ويظهر العدل ويتبعه المســلمون ويســتولي على الممالك الإسلاميّة ويُسمَّى المهــديّ ويكون خروج الدجَّال وما بعده من أشراط الســاعة الثابتة في الصحيح على أثره، وإنَّ عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجَّال أو ينزل معه فيُســاعده على قتله ويأتمُّ بالمهديّ في صلاته». (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص555. نقلاً عن البســتوري، المهديّ المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، ص29)

ومما تقدَّم يمكن تلخيص ما ورد في كتب السنَّة عن المهديّ المنتظر في نقطتين أساسيَّتين:

الأوْلى: هو رجل من أهل بيت النبي، ومن نسل فاطمة، وتحديداً من نسل الإمام الحسن، يولد

في المدينة-أي: لم يولد بعد-، ويُبايعه المسلمون في مكة، ثمَّ يهاجر إلى الشام.

الثانية: هو إمامٌ يؤمُّ المسلمين، فهو إمام عدلٍ، يحكم بسنَّة النبيِّ، لبضع سنين يملأ الأرض فيها عدلاً وقسطاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً.

مناقشة:

إنَّ موضوع المهدويَّة من أهم الموضوعات العقائدية التي ركَّز عليها نبيُّ الإسلام لما لها الدور الكبير في تمهيد الأمة للانقياد تحت رايته، لذلك ورد المئات من الأحاديث بشأن الإمام المهديّ ابتداءً من نسبه واسمه، ثمَّ ولادته ثمَّ طفولته ثمَّ غيبته ثم ظهوره وفي ملامحه وشخصيته وعلامات ظهوره ونحو ذلك.

وعلى هذا الأساس نجد أنَّ بعض الأشاعرة قد أخذوا بها، ولكن الأغلب اعتبر الكثير من هذه الروايات ضعيفة، وقد يرجع سبب ذلك لابن حزم الأندلسيِّ الذي خصَّص قسماً من كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) بمناقشة موضوع الإمام المهديّ المنتظر. (الإيماني، أصالة المهدويَّة في الإسلام في نظر أهل السنَّة والجماعة، ص13) أو للمؤرِّخ ابن خلدون الذي ضعَّف أغلب الروايات التي تتحدَّث عن الإمام المهديّ (عج) حيث ادَّعى:)أنها تفقد الاعتبار كمِّيَّاً وكيفيَّاً(. (الإيماني، أصالة المهدويَّة في الإسلام في نظر أهل السنة والجماعة، ص13) والجدير بالذكر أنه مؤرِّخ ولا شأن له بتضعيف أو تقوية الروايات، لكن اتبعه الكثيرون من أهل السنَّة.

بناءً على هذا اعتبروا الروايات التي تتحدَّث عن المهديّ عامَّة إحدى عقائدهم التي يؤمنون بها، وردّوا الروايات التي تتحدث عن ولادته فعلاً وغيبته ونحوها. وسبب ذلك أنَّ البحث فيه يرجع لبحث الإمامة في الأصل، فهم يعتقدون أنَّ إمامة الأئمة الاثني عشر موهومة، فلا يقبلون بإمامة المهديّ محمد بن الحسن العسكري (ع) بحسب مبناهم الأساسي وهو عدم تعقُّل الروايات التي تتحدث عن طول عمره الشريف وغيبته.

■ المطلب الثالث: مباني الشِّيعة ونصوصهم في المهدويَّة

أولاً: مباني الشِّيعة في المهدويَّة

إنَّ أهم وأبرز المناهج التي اعتمدتها الإماميَّة في العقيدة هي المنهج الروائيّ والمنهج التحليليّ

والمنهج الفلسفيّ[1].

وعلى هذا الأساس كانت حجج الشِّيعة إما عقلية وإما نقلية، فالأوَّل (العقل) مصدر من مصادر المعرفة، لكن لا سبيل له بمفرده في الأمور الغيبيَّة ولا سيما الدِّينيّة، فيحتاج حينئذٍ إلى الثاني وهو (النقل) (المطهري، محاضرات في الفلسفة الإسلاميّة، ص68) فلا يُطلق العنان للعقل، وكذا الحال في النقل، وإنما وضعت ضوابط في كيفيَّة الأخذ منهما والاعتماد عليهما .

بناءً على ذلك ذهبت الإماميَّة لوجوب وجود الإمام في كلِّ زمان ومكان، بدليل الإمامة من القرآن ومن السنَّة وفي العقل: «أما المرحلة الأوْلى فيجب علينا أن نبحث فيما إذا كان لآيات القرآن في باب الإمامة دلالة على الإمامة التي تقول بها الشِّيعة أم لا؟ وإذا كان لها دلالة على الأمر فهل تعني بالإمامة بمعنى كونها قيادة سياسيَّة واجتماعيَّة فقط، أم أنها تمتدُّ لتشمل الإمامة في معنى كونها مرجعيَّة دينيَّة، بل وكونها ولاية معنويَّة أيضاً...ننتقل لبحثها في سنَّة النبي لنلمس ما جاء بشأنها، ثمَّ ننتقل بعدئذٍ لتحليلها في ضوء النظر العقليّ، كي نرى حكم العقل وماذا يقبل من مراحلها الثلاث (سياسيَّة، اجتماعيَّة، دينيَّة)، فهل تراه يحكم لصالح أهل السنَّة في المرتبة التي تكون فيها قيادة اجتماعيَّة، فيرشد إلى أنَّ خليفة النبيِّ يجب أن ينتخب بالشورى من قبل المجتمع، أم تراه يحكم بوجوب أن يُعيِّن النبي بنفسه خليفته من بعده؟ » .(يُمكن مراجعة الأدلة القرآنيّة والروائية وحكم العقل في كتاب: مطهري، الإمامة، ص53 وما بعدها)

---

1 - الأول: يعتمد على وجود بيان من المعصوم، ودليل هذا المنهج هو ورود الردع منهم ^ عن الأخذ من غيرهم، بل والأمر بالرجوع إليهم.

والثاني: يعتمد على التعقّل البشري لفهم المعارف الإسلامية، بمعنى إضفاء العقلنة على جميع المحاور الفكرية، من منطلق احترام الإسلام للإنسان والعقل.

والثالث: يعتمد على الحكمة الإلهيَّة المقتبسة من بيت النبوة ^، فللفلسفة تأثير على المضامين الدينيّة كالاستدلال على وجود الباري بحدوث الأشياء بعد العدم (دليل الإمكان)، أو فناء الأشياء كما صرَّح بذلك القرآن والسنَّة في مسألة المعاد، وغيرها، إلى وصل الكلام والفلسفة بمعنى واحد عن الأعلام، كما يقول الشيخ مطهري: أضحى الكلام والفلسفة لدى ملا صدرا أمراً واحداً. (مرتضى المطهري، محاضرات في الفلسفة الإسلامية، ص68).

ثانياً: النصوص حول المهدويَّة في التفاسير الشيِّعيَّة

إنَّ إثبـات فكرة المهدويَّة عند الإماميَّة ورد بطرقٍ مسـتفيضة ومتواتـرة، حيث غطَّت كلَّ أبعاد شـخصيَّة الإمام المهديّ من حيث اسمه ونسبه وولادته وغيبته وظهوره، ونقتصـر في بحثنا على الروايات التي لم يأخذ بها المعتزلة والأشاعرة المتعلِّقة بولادته وغيبته، حيث ننقلها من مصادرها الروائيَّة فضلاً عن التفاسير الكلاميَّة[1]:

1 - مـا روي في أن الأئمة اثنا عشر إمامـاً وأنَّهم من الله وباختياره: أتى جبرئيل النبيَّ، فقال: يا محمد، إنَّ الله, عزَّ وجلَّ, يأمرك أن تزوج فاطمة من علي أخيك، فأرسـل رسـول الله إلى علي، فقال له: يا علي، إني مزوِّجك فاطمة ابنتي سيدة نساء العالمين وأحبهن إلي بعدك، وكائن منكما سيدا شباب أهل الجنة، والشهداء المضـرجون المقهورون في الأرض من بعدي، والنجباء الزهر الذين يطفئ الله بهم الظلم، ويحيي بهم الحق، ويميت بهم الباطل، عدتهم عدة أشـهر السـنة، آخرهم يصلي عيسى بن مريم خلفه.(النعماني، كتاب الغيبة، ج1، ص 136)

2 - مـا روي في أنَّ اللـه لا يخلي أرضه من حجة: رويَ من كلام أمير المؤمنين عليٍّ لكميل بن زياد النَّخعي المشـهور حيث قال: أخذ أميرُ المؤمنين بيدي وأخرجني إلى الجبَّان، فلمَّا أصحرَ تنفَّس الصُّعَـداء، ثُمَّ قال وذكر الكلام بطوله حتَّى انتهى إلى قولـه: اللَّهُمَّ بلَى ولا تَخلُو الأَرضُ مـن حُجَّةٍ قائمٍ لله بحُجَّته إمَّا ظَاهرٍ مَعلُومٍ, وإمَّا خائفٍ مغمُورٍ لِئَلاَّ تَبطُل حُجَجُ الله.(النعماني، كتاب الغيبة، ج1، ص 136)

3 - الكلام في ولادة صاحب الزمان وإثباتها بالدليل والأخبار: عن أحد صحابة الإمام العسكري قال: ثُمَّ ناداني ادخُل فدخلتُ ثُمَّ نادى الجارية فرجعت فقال لها اكشفي عمَّا معكِ فكشفت عن غُلام أبيض حَسَـنِ الوجه فكشفَ عن بَطنه فإذا شـعرٌ نابتٌ من لَبَّته إلى سُرَّته أخضَرُ ليس بأسود فقالَ هذا صاحِبُكم ثُمَّ أمرها فحملتهُ فما رأَيتُه بعد ذلك.(الطوسي، كتاب الغيبة، ج1، ص 233)

---

1 - راجع: الطباطبائي، تفسـير الميزان، ج15، ص158؛ مكارم الشـيرازي، تفسـير الأمثل، ج11، ص100 في تفسير سورة النور، الآية: 55، قال تعالى: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْـتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّـذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾؛ وراجع ايضاً: في تفسيرهم لسورة القصص، الآية: 5، حيث يقول تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾. وغيرها.

4 - في غيبته: إنَّ في صاحب الأمرِ سُنَّة من موسى قُلتُ: وما هي قال دام خوفهُ وغَيبَتُه مع الولاة إلى أن أذِنَ الله, تعالى, بنصره.(الطوسي، كتاب الغيبة، ج1، ص 332)

5 - عمر الإمام المهديّ: إنَّ وليّ الله يُعَمَّر عُمر إبراهيم الخليل عشرين ومئة سنةٍ.(الطوسي، كتاب الغيبة، ج1، ص 420)

الخلاصة:

وجود الإمام في كلِّ زمان عند الشِّيعة لطفٌ من الله, تعالى، فإمامة المهديّ (عج) هي استمرار للنبوَّة، والإمام هو الذي له الرئاسة العامَّة في أمور الدِّين والدنيا، وهو القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً. كما أنَّ المهديّ المنتظر عند الشِّيعة هو محمد بن الحسن العسكري، ولد سنة 255 هـ، وهو مستتر إلى أنْ يأذن الله, تعالى, له بالخروج. ولعلَّ في وجه استتاره، هو كثرة أعداء الله وقلة المناصرين له، فهو موجودٌ ويعيش بين الناس ويخالطهم، لكنهم لا يعرفون أنَّه هو الإمام المهديّ. كما لا تُشكِّل غيبته عائقًا عن الاستفادة من بركاته المتُمثِّلة بوجوده.

■ المبحث الثالث: أوجه الاتِّفاق والافتراق في المهدويَّة عند المدارس الكلاميَّة

المطلب الأوَّل: أوجه الاتِّفاق والافتراق في المهدويَّة عند المدارس الكلاميَّة

أولاً: اتَّفقت جميع المدارس بما فيهم مفسِّرو القرآن الكريم على اعتماد العقل في إثبات المسائل الشرعيَّة، وإنْ جعل بعضهم العقل هو الحاكم على الأدلَّة النقليَّة؛ كالمعتزلة ومتأخِّري الأشاعرة كالفخر الرازيِّ والآمديِّ وغيرهم، لكن بالنتيجة لا يُنكر اعتماد العقل في المسائل العقديَّة.

ثانياً: اتَّفق متكلِّمو المعتزلة والإماميَّة بما فيهم مفسِّرو القرآن الكريم على قاعدة اللُّطف، مستندين في ذلك على الأدلَّة العقليّة والنقليَّة، إلَّا الأشاعرة خالفتهم برفض هذه القاعدة، وأشكلوا عليها بقولهم: لا يجب على الله تعالى شيءٌ من اللُّطف.

ثالثاً: اتَّفق بعض متكلِّمي المعتزلة مع متقدِّمي الأشاعرة مع الإماميَّة على ضرورة وجود إمام في كلِّ زمان. وخالفهم البعض الآخر من المعتزلة والأشاعرة حيث ذهبوا إلى عدم ضرورة وجود

الإمــام في كلِّ آن، لأنَّ الإمام عندهم هو القائد الاجتماعيّ فحســب، ومن ثَمَّ لا تحتاج الأرض إلى خليفة، وبذلك ينتفي البحث حول شخصية الإمام المهديّ من الأساس.

رابعاً: بالرغم من اختلاف الأشــاعرة في قبول فكرة المهديّ آخر الزمان، لكن المشــهور منهم ذهب إلى أنَّه من نسل بنت رسول الله فاطمة، كما أنَّه يولد في آخر الزمان في المدينة ليملأ الأرض عدلاً وقســطاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً واتفق معهم أغلب المعتزلة. بينما انفردت الشِّــيعة بأنَّ المهديّ المنتظر هو محمد بن الحسن العسكري، ولد سنة 255 هـ، وهو مستتر إلى أن يأذن الله, تعالى, له بالخروج.

خامساً: إنَّ علماء الأشاعرة ومؤرِّخيهم قبلوا الروايات التي تُحدِّد نسب واسم مهديّ آخر الزمان والعلامات المقترنة بظهوره، لكنهم رفضوا الروايات التي تتحدَّث عن ولادته وطول عمره وغيبته.

سادســاً: اختلف مفسِّرو الشِّيعة -الذين يذهبون إلى أنَّ الإمامة هي الرئاسة العامَّة المطلقة في أمور الدِّين والدنيا-، مع المعتزلة والأشــاعرة الذين يذهبون إلى أنَّ الإمامة هي رئاسة اجتماعيَّة، فالإمامة عندهم لا تجب بالشرع ولا بالعقل، وإنما تجب بالمصلحة أحياناً. وعلى هذا الأساس سقطت أمامهم جميع النصوص الواردة في الإمام المهديّ بحجَّة عدم تعقُّل ضرورة لوجوده.

■ المطلب الثاني: سبب الاتِّفاق والافتراق والرأي المختار

أولاً: سبب الاتِّفاق والافتراق

إنَّ أبرز نقطة للخلاف بين الســنَّة والشِّــيعة بخصوص القضيَّة المهدويَّة هي مســألة الإمامة، ويرجع هذا الاختلاف إلى أنَّ السنَّة تؤمن بأنَّ النبي لم يسمِّ وصيّاً أو خليفةً له بعده، فذهبوا إلى أنَّ الأمر راجع إلى الشــورى فانتخبوا أبا بكرٍ خليفةً أوَّلَ للمســلمين، ثمَّ عمر ثمَّ عثمان، بينما تؤمن الشِّيعة أنَّ النبي محمد نصَّب أمير المؤمنين بأمر من الوحي الإلهي كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُــولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَــالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة: 67]، لكنَّ الخلافة اُغتُصبت من ابن عمِّ رسول الله (علي بن أبي طالب)، ومن ثمَّ من أولاده بعده، فخلافة أبي بكر وعمر وعثمان غير شرعيَّة.

ولتشخيص الســبب في هذا الاختلاف، نجد أنَّ الشِّيعة تستدلُّ على وجوب الإمامة بأحاديث نبويَّة أبرزها حديث الغَدير مؤيّدة بقاعدة عقليَّة وهي «قاعدة اللُّطف»، بينما ذهبت السنَّة إلى أنَّ

حديث الغدير لا يحمل الدلالة التي ذهب إليها الشِّيعة، إنّما المقصود منه هو المحبّة والموالاة وعدم معاداته.

وبالتمعُّن أكثر في سبب افتراقهم ومخالفة قاعدة اللُّطف التي يؤمن بها المعتزلة من دون الأشاعرة، هو هروبهم من الوقوع بإدانة أنفسهم في إمامة الخلفاء، كما ذكر ذلك الشيخ السّبْحانيّ في كتابه(بحوث فيالملل والنحل، حيث قال: «الغريب أنَّ المعتزلة الذين يذهبون إلى وجوب اللُّطف والأصلح علىالله, سبحانه، يشذُّون في هذا المقام عن معتقدهم هذا، مع العلم بأنَّ هذا المورد من جزئيَّاته، والذي منعهم عن الالتزام بالقاعدة في المقام أنَّهم لو قالوا بها في هذه المسألة لزمهم أنْ يقولوا بعدم صحَّة خلافة الخلفاء المتقدِّمين على عليٍّ؛ لأنَّ قاعدة اللُّطف تقتضي أن يكون الخليفة منصوصاً عليه من الله سبحانه ».(السّبْحانيّ، بحوث في الملل والنحل، ج6، ص268)

أما سبب الاتِّفاق فهو عدم استطاعتهم تضعيف كل الروايات الواردة في شخص المهديّ (عج) فاتفقوا جميعهم على أنَّ قضيَّة المهدويَّة متحقِّقة لا محالة، ولكن المهديّ يُخلق ويولد آخر الزمان، وكلُّ ذلك حتى لا يقعوا بتناقض قبول شخصية المهديّ المُحدَّدة بمحمدِ بن الحسن العسكري(ع)/ بينما انفردت الشِّيعة بعد اتِّفاقهم مع المعتزلة والأشاعرة بتحقُّق الفكرة المهدويَّة آخر الزمان، بالاعتقاد أنَّ المهديّ (عج) الذي يملأ الأرض عدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً هو محمد بن الحسن، الإمام الثاني عشر من أئمة الشِّيعة (ع).

ثانياً: الرأي المختار

إنّنا نؤمن بأصلين من مجموعة أصول بنيت عليها عقيدتنا في جميع المسائل العقدية والأحكام الشرعية، هما:

1. التواتر:

«التواتر اللفظي هو اتِّفاق الناقلين الذين يمتنع اجتماعهم على الكذب عادة في نقل ألفاظ الخبر وعباراته، كتواتر نقلهم لقوله: «إنيِّ تارك فيكم الثَّقلَيْن»، وقوله: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»، وغيرها ».(السّبْحانيّ، أصول الحديث، ص131) والنصُّ المتواتر يفيد الاطمئنان، وبناءًعليه:

فقد ورد النص عن النبي (ص) صراحةً على إمامة الإمام المهديّ على نحو متواتر, وأنَّه من أولاد الإمام الحسين غائب وسيظهر ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

2. قاعدة اللُّطف

إنَّ قاعدة اللُّطف من القواعد الكلاميَّة المعروفة، واللُّطف هو ما يجب على الله, تعالى, فعله، حيث استفاد من هذه القاعدة معظم متكلّمي المعتزلة والإماميَّة، وخالفهم في ذلك متكلِّمو الأشاعرة، ونحن نستغرب تغافل المعتزلة في الاستفادة من هذه القاعدة في مسألة تنصيب الإمام عامَّةً، أو إمامة المهديّ خاصَّة. وعلى كل حال يُستفاد من هذه القاعدة في وجوب التكليف الشرعيِّ، وإرسال الأنبياء، وضرورة تنصيب الإمام المعصوم.

أما دليل هذه القاعدة فهو يرجع إلى صفة حكمة الله، إذ إنَّ الحكيم لا يفعل خلاف الغرض؛ فترك الإسلام دون تنصيب حافظٍ له شارحٍ لأحكامه نفيٌ للغرض، والحكيم لا يفعل ما ينقض الغرض.

الخاتمة

إنَّ الاعتقاد بالقضيَّة المهدويَّة جمعت ووحَّدت البشريَّة كلَّها ، فهي إذاً حقيقة تتشارك فيها الإنسانيَّة جمعاءَ, فضلاً عن الأديان جميعها، فالكلُّ يأمل بظهور المهديّ لنشر التوحيد والمساواة ورفع الظلم وتصحيح الاعتقاد بالدِّين.

ومن بين أهم النتائج التي توصلتُ إليها، هي:

1 - إيمان جميع الأديان السماويَّة بفكرة المهدويَّة آخر الزمان، ومصداقها الأوحد والحقيقي هو المخلِّص والمنقذ العالمي المنتظر.

2 - إنَّ أغلب الفِرق الإسلاميّة فضلاً عن أبرز المدارس الكلاميَّة اتفقت على مسألة ظهور المهديّ في آخر الزمان.

3 - بعد الرجوع إلى ما ذهبت إليه كلٌ من مدرسة المعتزلة والأشاعرة والشِّيعة، من حيث المبنى وتتبع النصوص الواردة لديهم، اتَّضح لنا أنَّ هناك نقاط التقاء وافتراق.

4 - إنَّ منشأ الاختلاف يرجع إلى مخالفة المبنى التي تعتمد عليه كل مدرسة، كمخالفة المعتزلة قاعدة اللُّطف الإلهي في مسـألة ضرورة وجود إمام في كل زمان، وكذلك عدم إيمان الأشـاعرة بهذه القاعدة ممّا أفضى إلى عدم الحاجة للبحث عن وجود الإمام أو شخصه.

5 - منشـأ الاشـتراك يرجع إلى الأخذ ببعض النصوص التي تتحدَّث عـن مهديّ آخر الزمان، وترك الروايات التي تتحدَّث عن شـخصه بالتحديد أو عمره وغيبته ونحو ذلك، كما حصل عند المعتزلة والأشـاعرة، إلَّا الشِّيعة منهم، حيث فصَّلوا الاستدلال من خلالها على إمامة محمد بن الحسن العسكري مهديّ آخر الزمان.

المصادر والمراجع

1. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، د. م، ط1، 1420 هـ.

2. ابـن منظور، محمد بن مكرم، لسـان العـرب، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشـر والتوزيع، دار صادر، ط3، بيروت - لبنان، 1414هـ.

3. الألوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسـير القرآن العظيم والسـبع المثاني، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربيّ، ط 1، 1421 هـ.

4. الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مطبعة الحيدريَّة، طهران، ط2، 1372 هـ.

5. الإيماني، مهديّ فقيه، أصالة المهدويَّة في الإسلام، مؤسسة المعارف الإسلاميّة، قم - إيران، ط1، 1420 هـ.

6. باجو، مصطفى، عقائد الأشـاعرة، المكتبة الإسـلاميّة، القاهرة - مصر، ط1، 1433 هـ.

7. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، المكتبة العصرية، بيروت ــ لبنان، د. ط، 1436 هـ .

8. البستوري، عبد العليم، المهديّ المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، دار ابن حزم، ط1، 1420 هـ.

9. الحكيم، رياض، الثقافة المهدويَّة، مركز الدراسـات التخصّصية في الإمام المهديّ (ع)، النجف الأشرف، ط1، 1440 هـ.

10. الحميري، نشـوان بن سـعيد، شـمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط1، 1420 هـ.

11. الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط 9، ١٤١٣ .

12. زبيدي، محبّ الدِّين، محمد مرتضى الحسـيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت - لبنان، 1414هـ.

13. الزهدي، جار الله، المعتزلة، الناشر: الأهلية، بيروت - لبنان، ط1، 1974م.

14. السادة، مجتبى، تعريف المهدويَّة للحضارات الأخرى، دار أطياف، السعودية، ط1، 1441 هـ.

15. السّبْحانيّ، جعفر، أصول الحديث وأحكامه، دار جواد الأئمة، بيروت - لبنان، ط1، 1433 هـ.

16. السّبْحانيّ، جعفر، بحوث في الملل والنحل، مؤسسة النشر الإسلاميّ، قم - إيران، ط8، 1427 هـ.

17. السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدِّين عبد الحميد، صيدا - لبنان، المكتبة العصرية، د.ت.

18. السيوطي، عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الفكر، بيروت - لبنان، د. ط، 2018 م.

19. الطَّباطبائيّ، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، دفتر الانتشارات الإسلاميّة التابعة لجامعة المدرسين للحوزة العلميَّة، قم، ط5، قم ـ ايران، 1417ق.

20. الطبري، محمد بن جرير، دلائل الإمامة، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، د.ط، 1369 هـ.

21. الطوسي، محمد بن الحسن، كتاب الغيبة، مكتبة الآداب الشرقية، النجف الأشرف، ط1، د.ت.

22. الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، دار الكتب العلميَّة، بيروت-لبنان، ط 4، 1434 هـ.

23. القاضي أبادي، عبد الجبار بن أحمد، تنزيه القرآن عن المطاعن، مكتبة النافذ، الجيزة - مصر، ط1، 2006م.

24. القاضي أبادي، عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، الناشر: جامعة الكويت، د.م، ط1، 1998م.

25. الكوراني، علي، عصر الظهور، د.م، ط17، 1427هـ.

26. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت ـ لبنان، دار إحياء التراث العربيّ، 1403 هـ

27. مجموعة مؤلفين، موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، موقع الدرر السنية، تم تحميله في ربيع الأوَّل 1433 هـ.

28. المرتضى، علي بن الحسين، الشافي في الإمامة، مؤسسة الصادق، طهران، د.ط، 1407 هـ.

29. المطهري، مرتضى، الإمامة، دار الحوراء، د.ط، د.م، د.ت.

30. مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بيروت - لبنان، مؤسسة الأميرة، ط2، 1430 هـ.

31. النعماني، محمد بن إبراهيم، كتاب الغيبة، الصدوق، طهران- إيران، ط1، 1397 هـ.

32. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، المصحح: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث، ط1، 1412 هـ.